علم مختلف الحديث ومشكله

وهو العلم الذى يجمع بين ما ظاهره التعارض من الأحاديث ويوفق بينهما، إما بتقييد مطلقها، أو بتخصيص عامها، أو بحملها على تعدد الحادثة التى جاء من أجلها الحديث، أو نحو ذلك.

أو العلم الذى يبيِّن تأويل ما يشكل من الحديث النبوى وإن لم يعارضه حديث آخر.

ويسمى بعض العلماء هذا باسم «مختلف الحديث» أو «مُشكل الحديث» أو نحو ذلك، ولا ينبغ فى هذا العلم إلا مَن جمع بين الحديث والفقه.

• وجه الحاجة إلى علم مختلف الحديث ومُشكله

دعت الحاجة إلى هذا العلم حيث نشأت الفرق، وكثرت الطوائف، وعزَّز كلٌّ مذهبه، وحرص على نقض مذهب الآخر، وأثار بعضهم -كالمعتزلة والمرجئة والقدرية والمفوضة والرافضة والخوارج- أثاروا شُبهًا حول بعض الأحاديث التى يتعارض ظاهرها مع مذهبهم، أو يبدو فيها التناقض، فرد أهل الحديث ما ذهبوا بالتوفيق بين النصوص، أو دفع ما فيه شُبهة.

يقول ابن قتيبة: «فإنك كتبت إلىَّ تُعلمنى ما وقفتَ عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم، وإسهابهم[1] فى الكتب بذمهم، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف، وكثرت النِحل، وتقطعت العِصم، وتعادى المسلمون، وأكفر بعضهم بعضًا، وتعلَّق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث.

(١) فى القاموس: وأسهب: أكثر الكلام فهو مسهِب -بكسر الهاء- ومسهَب- بفتحها.

فالخوارج تحتج بروايتهم: «ضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم»[1]، و«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم خلاف مَن خالفهم» -و«مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد».

والقاعد يحتج بروايتهم: «عليكم بالجماعة فإن يد الله عزَّ وجَلَّ عليها» -و«مَن فارقَ الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»، و«اسمعوا وأطيعوا وإن تأمَّر عليكم عبد حبشى مجدع الأطراف»- و«كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل».

والمرجئ يحتج بروايتهم: «مَن قال لا إله إلا الله فهو فى الجنة، قيل: وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق».

والمخالف له يحتج بروايتهم: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»- و«لم يؤمن مَن لا يأمن جاره بوائقه».

والقدرى يحتج بروايتهم: «كل مولود يُولَد على الفطرة، حتى يكون أبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه»، وبأن الله تعالى قال: «خلقتُ عبادى حنفاء، فاجتالتهم[2] الشياطين عن دينهم».

والمفوِّض يحتج بروايتهم: «اعملوا فكل مُيَسرٌ لما خُلِقَ له».

والرافضة تتعلق فى إكفارها صحابة رسول الله ﷺ بروايتهم: «ليردن على الحوض أقوام، ثم ليختلجن[3] دونى، فأقول: أى ربى.. أصحابى أصحابى، فيقول: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك...».

ويحتجون فى تقديم علىٍّ رضي الله عنه بروايتهم: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى... اللَّهم وَالِ من والاه، وعاد مَنْ عاداه».

---

(١) أى سوادهم وجماعتهم.

(٢) اجتالتهم: استخفتهم فجالوا معهم فى الضلال.

(٣) بالبناء للمفعول: أى يُجتذبون ويُقتطعون.

ومخالفوهم يحتجون فى تقديم الشيخين رضى الله عنهما بروايتهم: «**اقتدوا باللذين من بعدى، أبى بكر وعمر**»- و«**يأبى الله ورسوله والمسلمون إلا أبا بكر**»... ثم ذكر مقالات المعتزلة من النظام، وأبى الهذيل العلاف وغيرهما..»[1].

• أشهر المصنَّفات فى عِلم مختلف الحديث ومُشكله

١- كتاب «اختلاف الحديث» للإمام محمد بن إدريس الشافعى (ت ٢٠٤هـ) وهو من أقدم ما وصلنا من مصنَّفات هذا العِلم، وقد طُبِع هذا الكتاب على هامش الجزء السابع من كتاب الأم.

٢- كتاب «تأويل مختلف الحديث» للإمام الحافظ أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦هـ)، وقد وضعه فى الرد على أعداء الحديث الذين اتهموا أصحاب الحديث بحمل الأخبار المتناقضة، ورواية الأحاديث المشكلة، فجمع بين الأخبار التى ادعوا التناقض فيها، وأجاب عما أوردوه من شُبَه على بعض الأخبار.

٣- كتاب «مُشكل الآثار» للإمام المُحدِّث الفقيه أبى جعفر أحمد بن محمد الطحاوى (ت ٣٢١هـ) وقد طُبِع هذا الكتاب فى الهند.

٤- كتاب «مُشكل الحديث وبيانه» لأبى بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصارى الأصبهانى (ت ٤٠٦هـ) وقد طُبِع هذا الكتاب فى الهند كذلك[2].

• أمثلة من هذا العِلم لابن قتيبة

١- قالوا: حديثان متناقضان -قالوا: رويتم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلونى على يونس بن متَّى، ولا تخايروا بين الأنبياء» ثم رويتم أنه قال:

---

(١) كتاب تأويل مختلف الحديث -لابن قتيبة- الطبعة الأولى، فرج الله زكى الكردى بمصر ص ٢ وما بعدها.

(٢) أصول الحديث.. علومه ومصطلحه ص ٢٨٦.

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول مَن تنشق عن الأرض ولا فخر» قالوا: وهذا اختلاف وتناقض.

قال أبو محمد (ابن قتيبة): «ونحن نقول: إنه ليس ههنا اختلاف ولا تناقض، وإنما أراد أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، لأنه الشافع يومئذ والشهيد، وله لواء الحمد والحوض، وهو أول مَن تنشق عنه الأرض، وأراد بقوله: «**لا تفضلونى على يونس**» طريق التواضع. وكذلك قول أبى بكر رضي الله عنه: وليتكم ولست بخيركم، وخَصَّ يونس لأنه دون غيره من الأنبياء مثل: إبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم أجمعين، يريد: فإذا كنت لا أحب أن أُفضَّل على يونس فكيف غيره ممن هو فوقه؟ وقد قال الله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ**﴾ [القلم: ٤٨]، أراد أن يونس لم يكن له صبر كصبر غيره من الأنبياء، وفى هذه الآية ما دلك على أن رسول الله ﷺ أفضل منه، لأن الله تعالى يقول له: لا تكن مثله، ودلك على أن النبى ﷺ أراد بقوله: «**لا تفضلونى**» على طريق التواضع، ويجوز أن يريد: لا تفضلونى عليه فى العمل، فلعله أكثر عملاً منى، ولا فى البلوى والامتحان، فإنه أعظم منى محنة، وليس ما أعطى الله تعالى نبينا ﷺ يوم القيامة من السؤدد والفضل على جميع الأنبياء والرُسل بعمله، بل بتفضيل الله تعالى إياه واختصاصه له، وكذلك أمته أسهل الأمم محنة، بعثه الله تعالى إليها بالحنيفية السمحة، ووضع عنها الإصر والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل فى فرائضهم، وهى مع هذا خير أمة أخرجت للناس بفضل الله تعالى»[1].

٢- قالوا: حكم فى الوصية يدفعه الكتاب، قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا وصية لوارث**» والله تعالى يقول: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾ [البقرة: ١٨٠]. والوالدان وارثان على كل حال، لا يحجبهما أحد عن الميراث، وهذه الرواية خلاف كتاب الله عَزَّ وجَلَّ.

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٤١- ١٤٣.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إن هذه الآية منسوخة، نسختها آية المواريث - فإن قال: وما فى آية المواريث من نسخها؟ فإنه قد يجوز أن يُعطى الأبوان حظهما من الميراث، ويُعطَيا أيضًا الوصية التى يُوصى بها لهما -قلنا: لا يجوز ذلك، لأن الله تعالى جعل حظهما من ذلك الميراث المقدار الذى نالهما بالوراثة، وقال عَزَّ وجَلَّ بعد آية المواريث: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء: ١٣- ١٤]. فوعد على طاعته فيما حَدَّ من المواريث أعظم الثواب، وأوعد على معصيته فيما حَدَّ من المواريث بأشد العقاب، فليس لأحد أن يوصل إلى وارث من المال أكثر مما حَدَّ الله تعالى وفرض[1].

٣- قالوا: حديثان متناقضان فيما ينجس من الماء، قالوا: رويتم عن النبى ﷺ أنه قال فى غير حديث: «**الماء لا ينجسه شىء**»، ثم رويتم عنه ﷺ أنه قال: «**إذا بلغ الماء قُلَّتين لم يحمل نجسًا**» وهذا دليل على أن ما لم يبلغ قُلَّتين حمل النجس، وهذا خلاف الحديث الأول.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إنه ليس بخلاف للأول، وإنما قال رسول الله ﷺ: «الماء لا ينجسه شىء» على الأغلب والأكثر، لأن الأغلب على الآبار والغُدران[2] أن يكثر ماؤها، فأخرج الكلام مخرج الخصوص، وهذا كما يقول: السيل لا يرده شىء، ومنه ما يرده الجدار، وإنما يريد الكثير منه القليل، وكما يقول: النار لا يقوى عليها شىء، ولا يريد بذلك نار المصباح الذى يطفئه النفخ، ولا الشرارة، وإنما يريد نار الحريق، ثم بيَّن لنا بعد هذا بالقُلَّتين مقدار ما تقوى عليه النجاسة من الماء الكثير الذى لا ينجسه شىء[3].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢- ٢٤٣.

(٢) الغُدران -بضم الغين المعجمة: جمع غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل، والنهر الصغير.

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٤٣٣- ٤٣٤.